الفصل الرابع
ملاقاة أخي في الدم ثانية

ابتسم الهدوء والسعادة على العالم. وهنا وهناك لمعت بركة مطر في انهدام. بينما الشمس والريح جففت قمم التلال. وانتصبت أمامنا زوبعة كنست الأرض كالمكنسة، واقتلعت الأعشاب والورود الصغيرة أو اختطفتها أو مزقتها، وخلفت وراءها أثراً متكسّراً كأثر حية ضخمة. أما نحن فقد غطانا الغبار والطلع. كانت أصوات **الهدهد** تنبعث من بين الأعشاب بينما كانت الحبارى وطيور الحجل مشغولة باصطياد اليرقات الحمراء الناعمة. وفجأة عند وصولنا قمة إحدى الهضاب رأينا خياماً سوداً في أسفل السفح المقابل. بعد قليل سأرى الأمير فواز ثانية.

وانتصبت خيمة المضافة بعيداً عن المكان الذي كانت فيه، تلك الخيمة التي استمتعت فيها بضيافة نواف وتعرفت على ابنه فواز الصغير قبل سنوات طويلة مثيرة. ومع ذلك فقد بدا كل شيء على حاله. وشعرت وكأني أعود إلى ذلك الزمان والمكان. وبدت نفس الصفوف المتناثرة من الخيام السود الصغيرة المفتوحة من الأمام، ونفس قطعان الجمال المنتشرة في الصحراء اللامتناهية تحت أشعة الشمس البراقة. ووسائد **شداد الجمال** التي اتكأت عليها في خيمة

الضيوف، والنار في الموقد حيث يغلي ماء القهوة بدت نفسها دون تغيير، وجناح النساء في الخيمة بما فيه من السروج والخرج والفرشات والوسائد وما إلى ذلك كلها بدت كما رأيتها آخر مرة.

وعلى يسار خيمة الضيوف انتصبت خيمة أخرى، وخرج من الخيمة بدوي شاب بملابس عادية، ولكنه محاط بأربعة عبيد يحملون صقور الصيد، وإلى جانبهم مجموعة من كلاب الصيد السلوقية. وعندما توجهت لملاقاته تملكني شعور غريب من الوهم. لقد عرفت بالطبع من هو ولكني في تلك اللحظة لم أستطع أن أشعر بأن هذا الشيخ المهيب الذي يتقدم نحوي بوقار كان ذلك الصبي الصغير اللعوب، ذلك المتشرد المتسخ المحبب الذي أخرجناه ذات ليلة من خرج الجمل. ولكنني على الفور أدركت شيئاً واحداً: فواز لم يعرفني،واسمي ـ كما يقتضي واجب الضيافة العربية ـ لم يلفظه أحد بعد وإن أخبار مقدمي لم تسبقني إليه.

ورمى أحد العبيد سجادة صغيرة على قدمي ـ وهي سجادة سوداء ذات إطار مزخرف وملون. عند هذا الرمز الصغير المقدس تبادلت التحيات مع الأمير. ووضع يده اليمنى على قلبه وقال «سلام الله عليك» ثم قادني إلى داخل الخيمة.

فرش العبيد الأربعة سجادة المناسبات الثمينة فغطت أرض الخيمة كلها. وعلى الجانب الآخر من الموقد تكدست كومة عظيمة من جلود الغنم والسجاد والوسائد تجاه **أسرجة** الجمال، لتكون ديواناً رائعاً وهو عرش زعيم الصحراء. خلع فواز صندله وأشار إلي بالجلوس إلى يمينه. واصطف الوجهاء والعبيد وأفراد حرس الأمير على السجادة العظيمة. ولم يتكلم أحد. كل الأعين اتجهت نحو القهوجي الذي نبش بضع جمرات من رماد الموقد، وأضاف كمية جديدة من بعر الجمال الجافة. وقطع صوت الماء الغالي في وعاء القهوة الكبير السكون السائد. وأخذ خادم الأمير الخاص «**مناحي**» عوداً من البخور من ثنايا كوفيته وقطع قطعة منه وألقاها على جمر بعر الجمال المتوهج. إنه نفس الشخص الذي فرش سجادة اللقاء. وعبر قماش السقف الأسود تسللت أشعة الشمس الضعيفة ورسمت صورة

من الأضواء والظلال على الأرض. وتحلق الوجهاء والفرسان والعبيد على شكل نصف دائرة صامتة. ومقابل هؤلاء الأشخاص المقرفصين كان «**مناحي**» وحده واقفاً. اتخذ مكانه على يساره سيّده ووقف هناك بلا حراك وقبضة إحدى يديه القويتين على مقبض سيفه الفضي.

واسترقت النظرات الخفية إلى مضيفي. فقد أحاطت كوفيته بوجه نسائي بيضوي له ملامح منتظمة وأنف معقوف قليلاً يدل على نسبه الأصيل. وعيناه السوداوان الواسعتان البراقتان يعلوهما حاجبان كثيفان تحت شاربه الأسود الصغير. وكلما أكثرت من النظر إلى هذا الشاب الرومانتيكي تعرفت فيه على ذلك الأخ القديم الصغير الجريء. وقد كلفني الكثير من جهد الإرادة لأكبح جماح قلة اصطباري وعدم الإعلان عن نفسي، ولكن كان علي أن أنتظر اللحظة المناسبة. فحتى الآن لم ينبس أحد ببنت شفة. وكلما بدا ـ أو تظاهر بذلك ـ بأنه مهتم حصراً بالقهوجي الذي مازال يجهز القهوة قرب الموقد. وفقاً لآداب السلوك في الصحراء يعتبر إثقال الضيف بالأسئلة الشخصية من أبواب عدم اللياقة. وأخيراً قدّم لي فواز المفتاح المنتظر بأن التفت إليَّ فجأة وقال: «مهما كانت البلاد التي أتيت منها أيها الغريب فمرحباً بك». فأجبته: «أيها الأمير فواز! لا يمكن أن أُدعى غريباً بين قومك. لأنني في يوم من الأيام وفي هذه الخيمة نفسها عرفت صبياً أطول قليلاً عندئذ من هذا السيف تحت قبضة خادمك. وبعد ظهر أحد الأيام عندما كان ذلك الصبي وأصدقاؤه يرمون بالمقلاع حدث ـ بمشيئة الله ـ أن اقتربت من ذلك المكان فأصابتني حصاة رمتها يد ذلك الصبي تماماً بين العينين. وكان بإمكان أي شخص أن يقول إن الله وضع نور الدم علامة على جبهتي ولذلك طالبت عندها بثمن باهظ لدمي».

أصغى فواز برأس مطرق وعينين خفيضتين كما لو كان يتذكر ثم رفعهما ثانية. وحدّق فيّ لحظة كما لو كان في غيبوبة. ثم أضاء وجهه وقفز واقفاً يصرخ من الفرح وأمسك بكتفي وضمني إلى صدره صائحاً «عزيز» مستعملاً الاسم الذي أطلقته عليَّ قبيلته في أيام طفولته «عزيز! لقد عدت! الحمد لله!». وقبلني على الخدين وضمني إليه مرة بعد مرة وقال: «الآن فهمت الكلمات التي تعلمتها

من أستاذي (أنت يا من يتبع ببصره جناح الطير أو مسار حصاة تطلقها يدك ماذا تعلم من تدابير الله؟)».

نعم لقد عدت. وأصبحت ثانية بين البدو لأرحل ثانية مع قطعانهم ولأنام تحت سقوف خيامهم، ولأقطع فرسخاً بعد فرسخ راكباً على جمال السباق تحت الشمس والنجوم، ولأعدو على ظهر خيولهم الأصيلة التي «تشرب الريح»، وإلى جانب مواكبنا تجري كلاب الصيد السلوقي.

* * *